

أَسْرَحْ

بقلم: أحمد مصطفى علي

كُتِلَ عجيب أمي في الصحن الكبير لم تكن تختلف كثيراً عن هؤلاء المكდسين داخل علبة القطار الصفيحي القديمة، نجحت بمعاونة صديقي اختراق الفراغ الذي هو بالكاد رفض كل شيء سوي حمولة قدمي دون باقي جسدي، كنا في موقف لا نحسد عليه حيث أصبحنا كهلالين في ليل دامس بالغ السواد والخطورة أيضاً، فقدنا القدرة تحديداً على معرفة ما يحيق في ذهن سائق القطار، لكن صديقي طمأنني أن الصحف القومية جميعها تؤكد أنه يعرف الطريق الصحيح لنجاتنا جميعاً، حاولت أن أسمع ارتفاع نبض قلبي خوفاً حينها في وسط هذا الزحام والضجيج العجيب جراء خبرتي أقوالها من قبل، لكنني شعرت أن حاسة السمع ضعيفة القيمة وسط الضجيج الصاخب، كما أن حاسة الرؤية هي الأخرى بدت باهتة في العتمة المنسحبة تدريجياً علينا من أكوام المفاجأة.

أخيراً بدا لنا مجاهد آخر في رحلة القطار الطويلة، كان من بعيد يبدو مثلما الفلاح الفرعوني الفصيح صاحب البردية العبقريّة التي كشفت تزوير التاريخ من قبل، ظل يتقافز بجسده النحيل بين الثقوب الموجودة بين البشر، تذكرت مقولة زوجتي حينما رافقتني مرة في مثل رحلات العذاب تلك، قائلة "كيف ينام أصحاب الأجساد السمينة على هؤلاء المتاعيس؟

الرجل تجاوز كل شيء، بدأ يتضح بعد خطوات ناجحة كمن اصطدم فجأة بشيء لم يكن في حسبانها، حينها شابه الناصر قطز الذي ما كاد ينتصر على الأعداء حتي قتله أبناء جلدته وأعوانه، أحد المجرمين اصطدم بالرجل طمعاً في البقعة التي رغب في وضع قدمه فيها، قلت في نفسي مقولة أبي عندما كنت أعاني حروبا غير أدمية مع بلطجية قبعوا في مدرستي الثانوية في زي طلاب، "الحياة ليست لقمة سائغة، شوكة الشر تقف دائماً أمام الكادحين فيها".

نجح في العبور لسكنة أخرى، فجأة ذكرني مشهد البطولي كجندي من حرب أكتوبر العظيمة، لم أدر لماذا قفز إلي ذهني ذاك التشبيه الذي لم يجعلني أفرق بين أعداء الخارج والداخل، ربما كلهم يحتل أرض الإله التي كتبها الله لعباده المستضعفين، يؤثرون رفايتهم على عذابنا وأرواحنا ودمائنا جميعاً فداؤهم، كم هي هينة الحياة لدي هؤلاء.

وصل أخيراً أمامي، حاولت مساعدته في كفاحه الشاق، كان نحيلاً للغاية كأرنب سَحَلَتْ أوبارَه الصحاري القاحلة الجافة البعيدة، متجعد البشرة من أثر المعارك الطويلة في الحياة، شعره طويل يبدو محاكياً للفن العبثي المحيط بنا، ذقنه الشعثة أشبه بعمال التراحيل الذين ما عاد يشغلهم من الحياة شيء سوي مزيد من العرق والجبن والخبز الجاف، جلبابه زهيد الصنع الخشن بدأ لي كملح من التصوف الزاهد الذي يتأرجح بين عزلة الحياة مجبراً عليها وبين الإبقاء علي رفق أخير من السعي فيها، حاولت مساندة يديه من السقوط رغم كوني كنت أخشى ذلك على نفسي، شعور تملكني بالزهو والفخر أن تنقذ آدمياً على حساب نفسك، والحساب حينها يكون عند رب السماء، شكرني بشدة وأشعرني كأني مسئول كبير يقوم بدوره تجاه الرعية، رغم أنني كنت بالكاد أقدم اعتذاراً لرب عملي الذي أخفق في ذلك الواجب منذ زمن.

فأجأني بمحاولاته المستميتة لشيء وحيد يربطه بين الوجود والعدم، كانت كل أماله في تلك الشنطة التي

حاول تخليصها من بين الساكنين عليها، أدركت أن فيها كل أملاك الدنيا لديه، هكذا علمت فيما بعد، أصبح مديناً لي بحياته وهكذا قال لي، شجعتني ذلك على اقتحام مدينة الصمت الحزينة العالقة على عينه التأهه، علمت منه في لحظات أنه خريج جامعي لم يجد عملاً بين آلاف من قرنائهم ولم يكن له نصيب في شيء غير شرعي انتشر كالسرطان في البلاد يطلقون عليه للأسف كلمة "الكوسة" لا أعرف هل لسرعة انتشارها أم لطولها الأشبه بالخازوق الذي تفنن المملوك الحفير صنعه بجسد الشرفاء؟ سألته: أين تستكمل المسيرة الشاقة.

يقول بصوت ضعيف كحاله "مازال هناك أمل أن أتخلص منها، مشيراً لشنطته، فالقطار ما زال طويلاً"، قبل أن أسأله عن مهنته هاهنا فأجاني: "أسرح"، كان بائع للملابس البالية لكتل اللحم الفقيرة، والسرّح فعل لمن يجوب الحياة المعطل إدراك مآسيها.